

## فن زخرفة المخطوطات القرآنية

د. تومي رفيقة

معهد الآثار-جامعة الجزائر 2

### مقدمة:

يعدّ فن زخرفة المخطوطات القرآنية من الموضوعات المهمّة في مجال الآثار الإسلامية بشكل عام والفنون الزخرفية بشكل خاص، و على الرّغم من أنّه يشكّل القاعدة الأساسيّة لدراسة فنون الكتاب، إلاّ أنه بقي موضوعا ثانويا، لم يحظ بإهتمام واسع من قبل الباحثين بما يتناسب و أهميته. يعتبر المصحف المخطوط من أوّل المخطوطات الدينية التي وجّهت إليها العناية، حيث خصّه الفنانون المسلمون بجهود فائقة من أجل تجميله وزخرفته وتطوير أساليبه رسمه و حفظه<sup>1</sup>.

فتعظيم القرآن الكريم حفزّ عددا كبيرا من الفنانين على العناية بتذهيب المصحف والتنافس في إتقان زخرفته، و يبدو ذلك جليا من خلال الجانب الجمالي الفني الذي يحمله، سواء لمظهره الخارجي و الداخلي و كذلك في خطّه، إذ حرص الفنان المسلم أن يجعله تحفة فنية متكاملة تسرّ بمرآها العين<sup>2</sup>.

### 1- زخرفة الغلاف:

#### 1-1- الغلاف الخارجي للمخطوط القرآني:

كان المصحف المخطوط في زمن الخليفة أبي بكر الصديق و عثمان بن عفان، رضي الله عنهما، يجمع بين لوحين من الخشب لا فنّ فيهما و لا حلية و لا زخرفة، ثم لم يلبث العرب أن اقتبسوا فنّ التجليد عن أقباط مصر، إذ استعملوا لباب البردي في تغليف المصاحف الصغيرة الحجم، بينما ظلّ الخشب هو المادة المفضلة للمصاحف الكبيرة، و نقشت عليه زخارف فنية رائعة مطّعمة بالعظم والعاج. كما قام المصريون بعد دخولهم تحت راية الإسلام بتغطية ألواح الخشب بالجلد، و زخرفة هذا الكساء الجلدي بألوان مختلفة من الزخارف العربية الإسلامية، كما أضيفت فيما بعد الصفائح المعدنية لتغليف المصاحف الكبيرة<sup>3</sup>. و منذ أواخر القرن 2 هـ / 8 م، بدأ الجلد يدخل في صناعة التجليد على استحياء شديد، فاستعملت شرائط منه في لصق الكعبين، و بعدها توسّع تداوله بحيث أصبح يغطي

<sup>1</sup>علام نعمت (إسماعيل)، فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، دت، ص175

<sup>2</sup>مرزوق (محمد عبد العزيز)، المصحف الشريف: دراسة تاريخية و فنية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975، ص 7

<sup>3</sup>الحلوجي (عبد الستار)، المخطوط العربي، ط2، مكتبة المصباح، السعودية، 1989، ص236.

اللوحين من الخارج و تقنن المزوّق في تزيينه بحيث أكسبه قيمة جمالية<sup>4</sup> تتضح من خلال أهمّ تلك الزخارف المستعملة كالجامات أو السرّات بمختلف أشكالها، و قد عمّ انتشارها في الفنون الزخرفية الإسلامية بإيران في القرن 10 هـ/16م خاصة على السجاجيد، و تتخذ الجامات أشكالاً عديدة و متنوعة، فمنها الشكل البيضاوي و الشكل الطولاني و النصف الدائري و المفصّص و اللوزي (الصورة 1). غالباً ما تتوسّط هذه الجامات زخارف نباتية من أزهار و أوراق و فروع و سيقان ملتفة<sup>5</sup>. و لجأ الفنان في العهد العثماني إلى استعمال أنواع مختلفة من الأزهار في تزيين أغلفة المصاحف، كزهرة شقائق النعمان أو ما تُعرف بـ "اللله" التي رسمت بأسلوب طبيعي و محوّر، أعجب الأتراك بهذه الزهرة كثيراً نظراً لجمالها الفتان و لتركيبة اسمها، بحيث تتكوّن الكلمة التركية "لاله" من نفس الأحرف المكوّنة للفظ "الجلالة" الله، لذلك أصبح لهذه الزهرة مكانة مقدّسة لدى العثمانيين<sup>6</sup>. كما زينت المخطوطات بأنصاف المراوح النخيلية ذات الأصول الساسانية<sup>7</sup>، والتي كانت بسيطة في هيئتها ثم تعقّدت بتعدّد فصوصها، و أصبحت فيما بعد تتكون من مروحتين منحنيتين و متلاصقتين بالتناظر لتلتقيان في الأطراف، و أمّا الفراغ المتبقي بينهما فسمح بإضافة عنصر جديد على شكل برعم<sup>8</sup>.

بالإضافة لهذا الأسلوب، فقد ظهر على غلاف المصاحف أسلوب فني آخر هو أسلوب "هاتاي"، و هو نوع من الزخرفة النباتية المحورة بالطريقة الصينية و القائمة على رسوم الأزهار و الأوراق النباتية فقط، فأخذ العثمانيون هذا الأسلوب و طوّروه على منتجاتهم الفنية و أصبح في مقدمة أساليبهم الزخرفية، تتألف أساساً من مراوح نخيلية و سحب صينية تعرف باسم "تشي تشي" إضافة إلى الفروع النباتية<sup>9</sup> (صورة 2). ملئت تلك الزخارف أحياناً المساحة الداخلية للسرّات المركزية للغلاف الجلدي للمصاحف بشكل متناظر و متناسب في غاية الإبداع الفني.

<sup>4</sup> الحلوجي (عبد الستار)، المرجع السابق، ص 239.

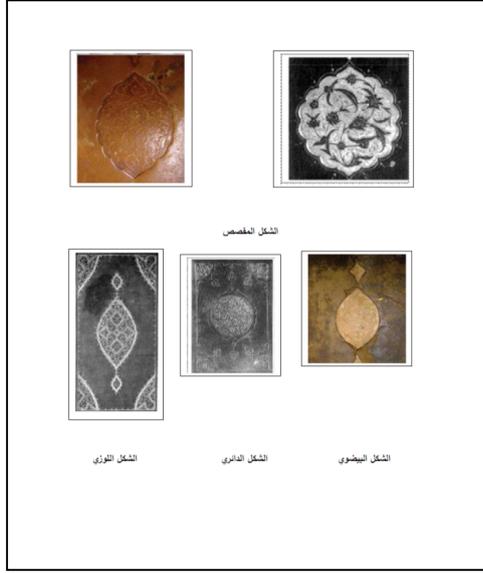
<sup>5</sup> طيان (شريفة)، الفنون التطبيقية الجزائرية في العهد العثماني دراسة أثرية فنية، أطروحة دكتوراه، المشرف د. صالح بن قربة، 2008، ص 322.

<sup>6</sup> ماهر (سعاد)، الخزف التركي، الجهاز المركزي للكتب الجامعية و المدرسية، 1972، ص 793.

<sup>7</sup> ديمان (م.س)، الفنون الإسلامية، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مراجعة: أحمد فكري، الطبعة الثانية، دار المعارف، 1958، ص 30.

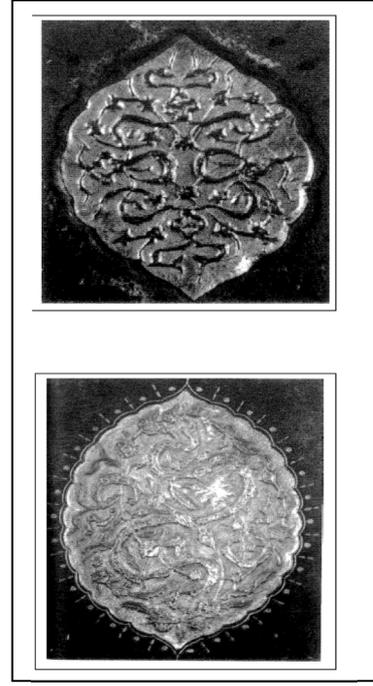
<sup>8</sup> بورابة (لطيفة)، التصوير في سقوف المنشآت المدنية في العهد العثماني بمدينة الجزائر و المدن السورية (حلب و دمشق)، دراسة أثرية فنية، شهادة دكتوراه في الآثار الإسلامية، إشراف عبد العزيز محمود لرح، الجزائر، 2008، ص 164.

<sup>9</sup> طيان (شريفة)، الفنون التطبيقية الجزائرية في العهد العثماني دراسة أثرية فنية، المرجع السابق، ص 254.



الصورة 1: أشكال الجامات الزخرفية

عن فرانسوا ديروش، مدخل إلى علم الكتاب المخطوط  
بالحرف العربي، ص 445



الصورة 2: الزخارف المركزية للسرة ممثلة بسحب تشي تشي

عن فرانسوا ديروش، المدخل إلى علم الكتاب المخطوط  
بالحرف العربي، ص 448

## 1-2- زخرفة لسان الغلاف:

استحدث المجلدون ابتداء من القرن 4/10م نظام اللسان في الجلدة لتعليم الصفحات، و هو لسان متحرك مفصل مزخرف و مذهب، يدخل بين أوراق المصحف ليغطي أطراف الأوراق ليقبها من عوامل التمزق و التآكل<sup>10</sup>، يحتوي على عناصر زخرفية نباتية من فروع و أوراق محورة محاطة بعناصر هندسية قوامها خطوط مزدوجة متقاطعة نفذت بتقنية الضغط، كما زينت الأركان بزخارف الرقش العربي<sup>11</sup>.

## 1-3- زخرفة الغلاف الداخلي :

اهتم المجلدون في أغلب الأحوال بتبطين جلدة المصاحف من الداخل بالقماش أو الحرير<sup>12</sup>، ومن البردي أو الرق أو الورق في بعض الأحيان<sup>13</sup>، و لم يكتف المجلد العربي بزخرفة الجلود الخارجية فقط، بل تعدوا ذلك ظهر الجلد الداخلي فغطوه بزخارف لا تقل عن الزخارف الخارجية روعة

<sup>10</sup> السيد (السيد النشار)، في المخطوطات العربية، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية، 1997، ص 6.

<sup>11</sup> تومي (رفيقة)، فن زخرفة و تصوير المخطوطات العربية بالجزائر من خلال نماذج المتحف الوطني للآثار و الفنون الإسلامية، و المكتبة الوطنية، رسالة دكتوراه، المشرف الأستاذ الدكتور عزوق عبد الكريم، 2014، ص 191.

<sup>12</sup> مرزوق (محمد عبد العزيز)، المصحف الشريف: دراسة تاريخية و فنية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975، ص 17

<sup>13</sup> الحلوجي (عبد الستار)، للمسات الفنية في المخطوطات العربية، مجلة الدارة، السنة الثانية، العدد 2، جويلية 1976،

السعودية. ص 514

وجمالاً<sup>14</sup>. و استخدمت طرق مختلفة في زخرفة الغلاف الداخلي، كأن يضغط الجلد أو يختم بالذهب أو بدونه. وكانت الزخرفة بالقصّ واللصق من الجلد أو الورق المذهب على الأرضية الملونة عملية تحتاج إلى عناية ودقة<sup>15</sup> إضافة إلى استعمال نوع آخر من الورق المزخرف يعرف بورق الإبرو.

## 2- زخرفة صفحات المصاحف:

زيّنت صفحات المخطوطات القرآنية بأشكال مختلفة، و تجلّت في مواضع عديدة منها: فواصل الآيات و فواصل السور و الهوامش الجانبية و في الصفحات التي تسبق النص القرآني و التي تأتي بعد نهايته و في فاتحة و خاتمة المصحف. قوّيت هذه الزخارف في أوّل الأمر بمعارضة شديدة من بعض العلماء و الفقهاء<sup>16</sup>، و وجد المزوّقون خلال القرنين الأولين من تاريخ الإسلام حرج من أن يجددوا شيئاً في المصحف أو أن يضيفوا إليه ما ليس منه<sup>17</sup>، و لم تكن المصاحف التي كتبت في عهد عثمان بن عفان خالية من النقط والشكل فقط، بل كانت أيضاً خالية من التحلية و التذهيب و التعشير وعلامات الفصل بين السور<sup>18</sup>.

إلا أنّ الزخرفة على الصفحات سرعان ما أخذت تتطوّر في شكلها عبر العصور<sup>19</sup>، فللفصل بين آيات القرآن وضعت في البداية ثلاث نقاط سوداء بين آية و أخرى، ثم أصبحت على صورة خطوط رفيعة أو نقاط أكثر عدداً، مكوّنة بذلك شكلاً مثلثاً أو دائرياً بسيطاً (صورة 3)، أو على شكل وريادات صغيرة<sup>20</sup>، إضافة إلى دائرة تحتوي في جوفها على رقم يشير إلى عدد تلك الآية في السورة<sup>21</sup>. أمّا بالنسبة لزخرفة فواصل السور، لم تكن تلك الفواصل الزخرفية في المصاحف الأولى تحمل بداخلها أسماء السور كما هو الشأن في المصاحف المتأخرة، و إنّما كانت مجرد شرائط من الزخرفة البحتة الخالية من أيّ نوع من الكتابة<sup>22</sup>، أو بصورة حلقات مكرّرة غير منتظمة، يرجّح أنها ترجع إلى القرن 7م/هـ.

<sup>14</sup> فتوحى (ميري عبودي)، فهرسة المخطوط العربي، وزارة الثقافة و الإعلام العراقية، بغداد، 1980، ص 48

<sup>15</sup> ديمانند (م.س)، الفنون الإسلامية، المرجع السابق، ص 86.

<sup>16</sup> السيد (أيمن فؤاد)، الكتاب العربي المخطوط و علم المخطوطات، ج 1، دار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1997، ص 325

<sup>17</sup> الحلوجي (عبد الستار)، المخطوط العربي، المرجع السابق، ص 210

<sup>18</sup> السيد (أيمن فؤاد)، الكتاب العربي المخطوط و علم المخطوطات، ج 1، المرجع السابق، ص 53

<sup>19</sup> السيد (أيمن فؤاد)، الكتاب العربي المخطوط و علم المخطوطات، ج 2، ص 32

<sup>20</sup> الحساني (حسين جهاد)، "زخرفة وتذهيب المصاحف عبر القرون"، مجلة ينابيع، العدد 1430، مركز الأمير لإحياء التراث

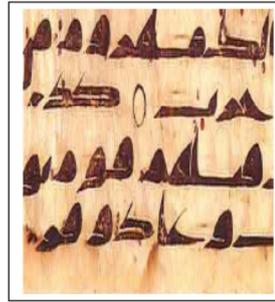
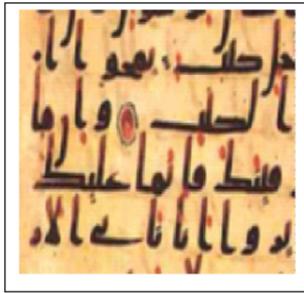
الإسلامي، مكتبة الإمام أمير المؤمنين العامة، ص 21

<sup>21</sup> البهنسي (عفيف)، معجم مصطلحات الخط العربي و الخطاطين، 1995، ط 1، مكتبة لبنان، ص 51

<sup>22</sup> الحلوجي (عبد الستار)، المخطوط العربي، المرجع السابق، ص 21

وفي بداية القرن 2/هـ 8م، بدأت كتابة أسماء السور بحروف مذهبة داخل الأشرطة التي كانت تحيط سورة الفاتحة، وفي الصفحة المقابلة أول سورة البقرة، حيث استخدمت الزخارف النباتية والأشكال الهندسية المعقدة. ظهرت وحدات زخرفية جديدة ابتداءً من القرنين 3هـ و4هـ/9م و10م وهي عبارة عن شكل ورق العنب ثم الأغصان والسيقان والسلاسل وغيرها.

و لم تظهر زخرفة صفحات بعض المخطوطات القرآنية بشكل تام إلا في القرن 4هـ/10م، إذ وصلت إلينا العديد من النماذج الجميلة متخذة أشكالاً و هياكل زخرفية مختلفة لونت بأبهى الألوان. وفي القرن 7هـ/13م، أصبحت الزخرفة هي الصفة الرئيسية لتحلية مقدمات المصحف ووسطه وآخره<sup>23</sup>.



الصورة 3: الفصل بين الآيات بدوائر

عن أيمن فؤاد السيد، الكتاب العربي المخطوط و علم المخطوطات، ج 2

و بلغ فن زخرفة المصاحف ذروته في العصر المملوكي (648هـ - 1517م)، إذ أغرم سلاطينهم وخلفائهم باقتناء نسخ فريدة و متميزة من المصاحف الشريفة<sup>24</sup>، زينت بعض صفحات المصحف الشريف ووضعت الوحدات الزخرفية الملونة، كقواصل بين الآيات (الصورة 4)، أو في الهوامش مثل الزهيرات و النجمات الرقيقة لتدخل على النص دلالة على مواضع انتهاء الأحزاب و الأجزاء، أو تشير إلى مواضع السجود<sup>25</sup>. ما زالت بعض المصاحف منها شاهدة على ذلك، كان أجملها و أروعها في فن التذهيب و الزخرفة مصحف السلطان محمد بن قلاوون<sup>26</sup>، المحفوظ بدار الكتب المصرية وهو مصحف متوسط الحجم، تخلو صفحاته من المستطيلات الزخرفية، ماعدا فراغ السور في الصفحة الاستهلالية التي تسبق سورة الفاتحة، و المصحف كله مكتوب بماء الذهب بالخط الثلث و مضبوط الشكل بالكامل، وكتب في سنة 764 هـ 1382 م. وبالرغم من ذلك تبدو صفحاته بسيطة و رقيقة، تجبر

<sup>23</sup> الحساني (حسين جهاد)، زخرفة و تذهيب المصاحف عبر القرون، المرجع السابق، ص 21 .

<sup>24</sup> السيد (السيد النشار)، في المخطوطات العربية، الإسكندرية، 1997، ص 53 .

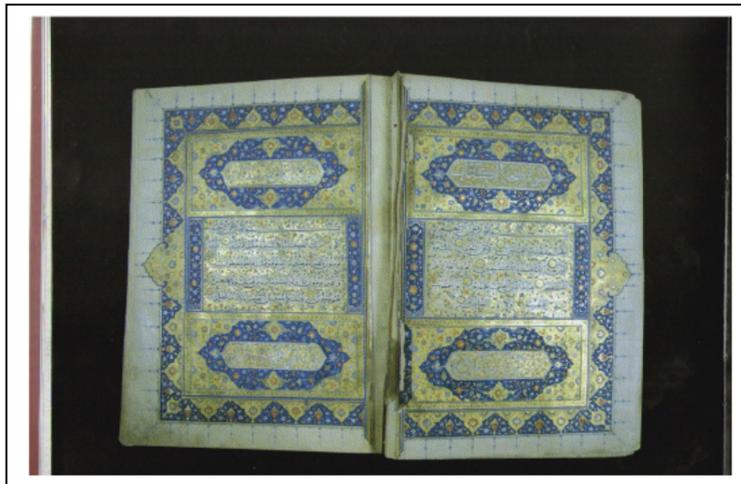
<sup>25</sup> السيد ( أيمن فؤاد)، الكتاب العربي المخطوط و علم المخطوطات، ج 2، المرجع السابق، ص 325 .

<sup>26</sup> هو السلطان الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون، ولد بالقاهرة في 684 هـ 1285 م/، و توفي بها في 741 هـ / 1341 م، أنظر المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 2، ص 6 .

الناظر على طول التأمل والتمعن، وقد كتب هذا المصحف خصيصا لكي يوضع في مسجد القلعة الذي بناه السلطان محمد بن قلاوون و أوقفه عليه<sup>27</sup>. ما في العصر العثماني فقد اتجهت صناعة المخطوط القرآني إلى المصاحف الدقيقة جدا والصغيرة الحجم، و أنتج الفنان لوحات صغيرة جدا لكنها تحتوي على أشكال متعددة ومزج رائع في الألوان (الصورة5)، شكّلت ما يعرف بزخارف الأرابيسك أو الرقش العربي، و أضيفت في بعض الأحيان علامة زخرفية أو شمسة امتدت من المستطيل الذي يضم عنوان السورة إلى حاشية المصحف<sup>28</sup>، إلا أنّ هذا الفن تراجع في نهاية الفترة العثمانية كغيره من الفنون<sup>29</sup>.



الصورة4: الشريط الزخرفي الذي يفصل بين سورتين



الصورة5: زخرفة الصفحات الاولى من مصحف عثماني  
( عن تومي رفيقة)، فن زخرفة و تصوير المخطوطات العربية

<sup>27</sup> الغيطاني(جمال)، ملامح القاهرة في ألف سنة، دار نهضة مصر، القاهرة، 1997، ص ص176- 179

<sup>28</sup>تومي(رفيقة)، فن زخرفة و تصوير المخطوطات في الجزائر، المرجع السابق، ص345.

<sup>29</sup>نعمة (زينا رحيم)، " أشكال الحلي الجانبية للمصحف الشريف في العصر العثماني :مجلة الأكاديمي، كلية الفنون الجميلة،ع62  
جامعة بغداد، 2012 م، ص 246- 299.

## الخاتمة:

نستخلص مما سبق أن زخرفة المخطوطات القرآنية حظيت بزخرفة الفنان منذ العصور الأولى للهجرة وتطورت مع الزمن على طول التاريخ الإسلامي، لتبتكر في كل مرة تكوينات مدروسة جاءت غاية في الدقة والانسجام وآية في الإبداع إضافة إلى التذهيب، فأوليت فواصل الآيات وعناوين السور عناية كبيرة وكذلك بداية المصحف ونهايته وفاتحته وخاتمته.

فيمكن تلخيص مواقع الزخرفة في المخطوطات القرآنية كما يلي:

- زخرفة عناوين السور: منذ القرن السادس الهجري ظهرت الزخارف على عناوين السور، أضيفت إلى جانب العنوان سعيفات هامشية تكاد تكون دائما ملونة باللون الذهبي.

- زخرفة الشريط الذي يفصل بين سورتين.

- زخرفة الشريط الذي يحيط بآيات المصحف: كان الشريط الذي يحيط بالصفحة يزين بعناصر زخرفية مختلفة مثل الجداول والأشكال و الرسوم الهندسية كالدوائر و المربعات الصغيرة المتداخلة.

- زخرفة فواصل الآيات: كانت في معظمها تتكون من دوائر سوداء، بينما علامات الأجزاء هي عبارة عن دوائر في داخلها مربعات صغيرة تتداخل مكونة أشكالا نجمية تدخل على النص القرآني لفصل مجموعات آيات كل سورة، وهي إضافة وظيفية بحتة.

- زخرفة علامات الأجزاء والأحزاب: عبارة عن أشرطة نباتية حلزونية و جامات تضاف للإشارة إلى نهاية القسم القرآني، و تمثل علامات الأجزاء بدوائر داخلها مربعات تتداخل مكونة أشكالا نجمية يكتب بداخلها ما يدل على الجزء من المصحف<sup>30</sup>.

- زخرفة الغلاف و اللسان.

<sup>30</sup>الأصمعي (محمد عبد الجواد)، تصوير و تجميل الكتب العربية في الاسلام، دار المعارف، القاهرة، 1971، ص ص 78. 77.